مجلة العدوي للسانيات العرفنية وتعليمة اللغات

Issn: 2773/ 3300

http://www.asjp.cirect.dz/en/presentation Revue/ 804

المجلد:01 العدد: 02 (2021) ص08/17

الأسس المعنى في التصور المعرفي

Meaning in cognitive perfection

أد. بشير إبرير*

جامعة ، عنابة ، الجزائر

bachir.ibrir@yahoo.com

معلومات المقال	الملخص:
تاريخ الارسال: 2021/09/07 تاريخ القبول: 2021/10/20 الكلمات المفتاحية: ✓ المعنى ✓ تشومسكي ✓ التداولية المعرفية ✓ مقاربة عرفنية	يرتبط المعنى بالمقام في احداث الخطابات وإنتاج النصوص في التصور المعرفي . نعالج في هذا الموضوع عدّة قضايا هي : المقصود بالتصور المعرفي والدّور الذّي قدّمه تشومسكي في التأسيس للعلوم المعرفية ،وكيف تجاوزه تلاميذه إلى الدّلالة المعرفية المؤسسة على عدّة مفاهيم منها :المعنى الموسوعي ،البنية التصورية المجسدة ،البناء الدّلالي بوصفه بناءً تصورياً ،التّداولية المعرفية ،نظرية المناسبة والمقام وغيرها.
Article info	***Abstract :***
Received 07/09/2021 Accepted 20/10/2021 *:Keywords* ✓ *The meaning* ✓ *Chomsky* ✓ *cognitive pragmatics.*	*he meaning is related to the situation in the creation of discourse and the production of texts in cognitive perception. This theme deals with several topics as: what is meant by cognitive perception and what is the role that Chomsky presented in the foundation of cognitive science, and how his students transcended him to epistemological meaning based on several concepts, including: encyclopedic meaning, embodied conceptual structure, semantic structure as conceptual structure, cognitive pragmatics, and situation theory, and others.*

• المؤلف المرسل.

أد. بشير إبرير

✓	

مقدمة:

نقصد بالتصور المعرفي، ما يمكن أن تقدمه علوم المعرفة les sciences cognitives من فائدة في دراسة الموضوع؛ إذ توجد لها علاقة وطيدة بعدة مفاهيم مؤسسة للتخاطب والتواصل مثل: المقام والمقصدية وأفعال الكلام والمناسبة... ولكن يمكن أن نشير أولا إلى تشومسكي (1928) Chomsky، وما بذله من جهد في البحث اللساني؛ إذ يعد المؤسس الحقيقي والممهِّد لما سُمِّي بعده باللسانيات المعرفية linguistique cognitive.

نعلم جميعا الجهاز الاصطلاحي الذي جاء به تشومسكي وعليه بنى نظريته في اللسانيات/النحو التوليدي الذي يمثل النموذج الكلاسيكي في المدرسة المعرفية إلى جانب النموذج الجديد الذي جاء بعده في أمريكا، والمسمى باللسانيات المعرفية.

1-تشومسكي واللسانيات المعرفية:

تمثّل سنة 1956 المنعطف الحقيقي لبداية التأريخ الرسمي للسانيات المعرفية، فقد اجتمعت حلقتان دراسيتان حول مشروع مشترك هو: "البرنامج الإدراكي أو المعرفي" شارك فيه تشومسكي، وعالم النفس "هربرت سيمون"، و"مارفت منسكي" خبير الذكاء الاصطناعي.

وكان الهدف لهذا المشروع تشغيل العقل بالملكات التي يطورها، وأولها الملكة اللغوية؛ أي أن النشاط اللغوي يرجع إلى معالجة المعلومات المسجلة في الدماغ، ويُفسح المجال لقواعد تركيبية تداولية للرموز. وكأن العقل آلة يتقاسمها علم النفس المعرفي وفلسفة العقل والذكاء الاصطناعي، وقد وافق تشومسكي على عدد من الخيارات النظرية والمنهجية.

إن حديث تشومسكي عن اللغة بأنها نظام من القواعد، وأنّ النحو التوليدي عنده، مؤسَّس على ثلاثة أقسام هي: السياق والتحويل والتأويل، بالإضافة إلى استعماله المصطلحات من مثل: الملكة والإنجاز، والبنية العميقة/الذهنية والإبداعية créativité، وتركيزه على المفهوم القالبي في علاقة اللغة بالمعرفة، واشتغاله على الدماغ وكأنه تمثيل أو صورة مجازية للحاسوب. يعني كل هذا أن المعرفة اللغوية بالنسبة لتشومسكي معرفة ذهنية.

وبهذا فإن جهود تشومسكي تمثّل الجسر الذي تم العبور عليه لتأسيس علم جديد، هو العلوم المعرفية التي تُعد نسقا علميا جديدا قائما على تضافر التخصصات والمفاهيم الناتجة عنها. ومنها اللسانيات المعرفية التي تبحث في الدلالة المعرفية متجاوزة الدلالة التركيبية عند تشومسكي.

ولما لم تفِ نظرية تشومسكي بما وعدت به في دراسة المعنى الذي ظل أسير البنية التركيبية جاء علماء آخرون أغلبهم تلاميذ لتشومسكي باهتمامات جديدة تتعلق بتوسيع الدلالة من مستوى التركيب إلى المستوى المعرفي الذي تتداخل في تكوينه علوم كثيرة تتبادل الأخذ والعطاء في دراسة اللغة.

نذكر من هؤلاء العلماء: جيري فودور(1935) J. Fodor، وجورج لايكوف (1941) G. Lakoff، وجاكندوف (1945) Jackendoff، ومارك جونسون (1949) M. Jhonson، ومارك تورنر (1954) M. Turner، وليونار تالمي (...) L.Talmy، وجيل فوكونييه (1944) G. Fauconnier، ورونالد لانقاكر(1942) R.Langocker، وغيرهم من علماء المعرفة.

وقد مثلت هذه الدراسات اهتمامات جديدة بالمعنى حتى أنها وسمته بالموسوعية، وسمَّته المعنى الموسوعي.

2-فما هو المعنى الموسوعي:

هل هو المعنى المجازي بما يحمل من سعة في الرؤيا ونظرة للغة عميقة تتجاوز مبناها إلى معناها، تتجاوز شكلها وبنيتها إلى ما تؤديه من وظائف في التواصل والتداول والتخاطب بين الناس حسب مقتضيات الحياة الاجتماعية واستعمالاتها اللغوية المنطوقة والمكتوبة في مقاماتها الخاصة؟

الأسس المعنى في التصور المعرفي

عنما انفلت المعنى من قبضة البنوية وكسر قيودها صار من الصعب التحكم فيه، صار يصنع عوالمه المختلفة الخاصة به، وصار لكل شيء خاص معناه، يميزه عن غيره ويوضحه ويصنع هويته.

ولعل أهم ما يميز اللسانيين المعرفيين أنهم رأوا أنّ ما يعدّه أغلب اللسانيين معارف تداولية أو ثقافية أو عَقَدية، هو في الحقيقة جزء من المعنى.

وأنّ المعارف التي يحصلها المتكلم فيما يخص عبارة لغوية ما يسهم في تحديد معناها، ويجب أن يسمح ذلك التحليل بتوضيح كل الاستعمالات التي تخص العبارة، وبخاصة استعمالاتها المجازية التي لم يهتم بها اللسانيون البنويون الوصفيون على مدار قرون، وعدّوها جزءا من اهتمامات علماء البلاغة والأسلوب ولا علاقة لها بالنحو مثلا.

فقول الشاعر: «أوقفوا قلبي عن النبض

سأرتاح قليلا...».

تختلف من حيث معناها عن قول الطبيب: «توقف القلب».

فالأولى قالها شاعر قولة مجازية، والثانية قالها الطبيب على الحقيقة. فالقلب عند الشاعر يتوقف ليسمح له بقليل من الراحة، لعله يسترجع معها الأنفاس اللازمة للمواصلة. بينما القلب عند الطبيب عضلة تضخ الدم في الجسم بتوقفها تتوقف الحياة نهائيا.

تماما مثل الوردة، في مخبر كيميائي فهي تتركب من عناصر محددة، يتم تحليلها ووضعها في قارورات محددة. ولكنها عند الشاعر أو الفنان شيء آخر قد يرسمها في لوحة، قد يقدمها هدية، قد يكتب بشأنها قصيدا شعريا غنائيا، قد يضعها في أذنه أو بين دفات كتابه، قد تتحوّل إلى وطن...

وأن كلمة مثل التوتّر، إذا وصفناها فقلنا: توتر اجتماعي أو توتر نفسي، أو توتر فيزيائي، فقد وسّعنا معناها بأن جعلنا فروقًا ووجوها بينها بحسب ما تقتضي الضرورة.

وكذلك كلمة سجادة: فمنها سجادة الصلاة والذكر، ومنها سجادة البهو، ومنها سجادة غرفة الاستقبال أو دار الضياف كما سمّاها الأوّلون، وهي تحدد بوظيفتها وحجمها.

إنّ كل هذه الأمثلة قد اتسع فيها المعنى حسب طاقتها المجازية الكامنة في الكلمة حسب مجاورتها لأخواتها في السياق اللغوي، وحسب المقام الذي تقال فيه، وما تختزنه من خلفيات فكرية ثقافية وعقدية دينية واجتماعية عُرفية، ونفسية، وجملة من المواضعات الأخرى المؤطرة والموجهة لها والتي يكيّف المتكلم خطابه بالنظر إليها.

وهكذا «كلّ ما في اللغة موجود لخدمة المعنى».

يفترض محمد غاليم وهو يتحدث عن المعنى اللغوي والمعرفة النواة:

«أنّ المعنى تعبير عن كيان تمثيلي واحد هو بناء التصورات التي تتضافر في تكوينه مجمل أنساق الذهن لدى الإنسان».

وبناء على ذلك –كما يوضح غاليم- تكون المظاهر الدلالية التي يمكن بناؤها داخل النسق اللغوي، جزءا من المعنى. وتكون السمات الدلالية التصورية المشكلة لمجال المعنى مجموعة كبرى، والسمات الدلالية التصورية الواردة في البنية النحوية جزءا أو مجموعة فرعية منها

يُعد تمثيل المعنى الموسوعي في نظر كل من "فيفيان إيفانز" و"ميلاني جرين" العنصر الثالث في بناء الدلالة المعرفية، ويشمل الكلمات (والوحدات اللغوية الأخرى) ويتم اعتبارها "نقاط دخول" أو منافذ إلى مستودعات رحبة من المعرفة المتصلة بمفهوم معيَّن.

ويسبقه البناء التصوري مجسدا: ويعني المعاني المرتبطة عرفيا بالكلمات (ووحدات لغوية أخرى).

وعلى هذه العناصر الثلاث يتم "تصور عملية تشييد المعنى"، الذي يُعدُّ عملية التصور عملية حركية خادمة للوحدات اللغوية، بوصفها تحفيزات لسلسلة من العمليات التصورية، واستدعاء المعرفة الخلفية.

تمكن الإشارة في هذا الشأن إلى أهمية القصدية والملاءمة أو المناسبة، في الربط بين هذه العناصر جميعا؛ فكلها مفاهيم متضافرة في بناء الدلالة المعرفية وتحصيل المعنى.

3- البنية التصورية المجسدة:

مفهوم مركزي في اللسانيات المعرفية، وهو يبحث في طبيعة العلاقة بين البنية التصورية والعالم الخارجي المحيط بالتجربة الحسية. ويُعد التجسيد أو الجسدنة فكرة مهمة في تفسير طبيعة التنظيم التصوري بناء على الخبرة الجسدية، فذلك يسهم هو أيضا في المعنى، فالعقل يؤدي وظيفته وكذلك الجسد له وظائفه.

يعود الفضل في هذا إلى "مارك جونسن" صاحب كتاب "الجسد في العقل" Body in Mind، وهو بحث في صميم الفلسفة يعالج فيه أطروحة بالغة الأهمية هي: «جسدنة العقل، بدل "عقلنة الجسد" وهي أطروحة فلسفية معاصرة تناقض الإرث الفلسفي القديم الذي حاولت فيه الأنساق الفلسفية التقليدية إضفاء نوع من الإقصاء أو الاحتواء للجسد عبر تسليط العقل عليه ليقمع قواه "الغضبية" و"الشهوانية"...».

فهل المعنى عقل أم جسد أم هما معا؟ أم أن كلا منهما يسهم في بنائه بالقدر الذي يخصه؟

إن الذي يهمنا هو أن نحاول تقديم مثالٍ نوضح من خلاله التجربة الجسدية ودورها في بناء المعنى وتفسيره.

جاء في رواية "الجازية والدراويش" لعبد الحميد بن هدوقة حوار دار بين الشاعر والطيب وهما في السجن قول الشاعر للطيب الذي ضاق خاطره في السجن: «ما أنت فيه هو سجن صغير في سجن كبير، المساحة التي هنا أو خارج السجن متساوية، السجان هنا والشامبيط هناك».

إنّ كلّا من الشاعر و الطيب محبوسان في حجرة مغلقة لا يستطيعان الخروج منها، فلها خصائص محددة من حيث بناؤها؛ يجعل منها سجنا في داخلها وفي خارجها؛ أي أنها لها حدودها المميزة الفاصلة، وقد أصبحت بهذه الأوصاف لها خاصية إضافية هي: الاحتواء. فالسجينان لا يستطيعان الخروج ومغادرة الحجرة، وبالرغم من أن الأمر يبدو واضحا، فإنّ مكانا بهذه الخصائص يحقق مفهوم الاحتواء، فهو يحتوي السجينيْن، وهما جسدان محتويان في حجرة، يمران بتجربة جسدية خبراها في تفاعلهما مع العالم الخارجي، فلا يستطيعان التسرب من فجوات الأبواب، كما يفعل النمل أو النفاذ من الشقوق كما ينفذ الغاز مثلا.

بل وأكثر من ذلك أنه يوجد احتواء مضاعف أو احتواء الاحتواء في قول الشاعر: "ما أنت فيه هو سجن صغير في سجن كبير". فالسجينان يحتويهما السجن بخصوصيات بنائه وحدوده، والسجن صغير يحتويه سجن أكبر منه هو: "دشرة السبعة" كما جاء في الرواية بعاداتها وتقاليدها وأعرافها ومفاهيمها للحياة. فهي خصوصيات من نوع آخر، ومن الأدلة على ذلك أن السجان يحرس السجن والمساجين في السجن الصغير، و"الشامبيط" شخصية في الرواية يحرس أهل القرية، فعلى المستوى الجسدي أهل القرية أو ساكنتها يمرون بتجربة جسدية خبروها في العالم الخارجي في محيطهم المعيشي السجن الكبير.

وعلى المستوى العقلي نلاحظ أن الشاعر هوّن الأمر على الطيب بأن جعل المساحة التي في السجن أو خارجه واحدة ومتساوية.

فهي هنا وهناك واحدة فتوجد إحالة مهمة جدًّا تسهم في انسجام النص من ناحية، وتناسب مقام الحديث من ناحية أخرى.

وهكذا فإن مفهوم الاحتواء يُعد مثالا على ما يسميه علماء اللغة: "بيان رسم الصورة" أو "مخطط الصورة" Image Schema؛ ففي النموذج المعرفي يمثل هذا التصور وسيلة تفضي فيها الخبرة الجسدية إلى تصورات دالة، فبينما يمثل مفهوم "الوعاء" علاقة وطيدة بالتجربة الجسدية المباشرة في علاقتها بالأمكنة وتفاعلها معها، فإنّ البنية التصورية المؤسسة على "مخطط الصورة" بإمكانها إنشاء عدد أكبر من أنماط المعنى المجرد.

مثال ذلك هذه الأمثلة:

إنه يغط في نوم عميق

تملّكه الرعب

وقع في حرج كبير

بدأ يتعافى من الوباء

دخل في نوبة من الهستيريا

استعاد عافيته شيئا فشيئا

الأسس المعنى في التصور المعرفي

رأى لايكوف وجونسون بأن التصور الاستعاري في علاقته بمخطط الصورة يجعل من هذه الأمثلة تندرج في مجال تصوري مجرد للحالات States التي تنتمي إليها مفاهيم مثل: النوم والرعب والحرج والصحة... ويؤدي ذلك إلى الاستعارة التصورية métaphore conceptuelle القائلة بأن الحالات أوعية. هكذا إذن تتأسس فكرة التصور الاستعاري في كون البنية الدالة من البنية الجسدية تنتج تصورات حسية مثل مخطط الصورة الخاص بالوعاء الذي ينتج بدوره حالات في صورة مجالات تصورية تجريدية كما في الأمثلة السابقة، وبذلك يتجسد البناء التصوري.

4-البناء الدلالي بناء تصوري:

يؤكد هذا المبدأ على أنّ اللغة تشير إلى تصورات كامنة في البنية الذهنية للمتكلم؛ أكثر مما يشير إلى أشياء أخرى في المحيط الخارجي، وبناء عليه، فإن البناء الدلالي هو بناء تصوري. تُعد المعاني المرتبطة بالكلمات تصورات لغوية أو معجمية؛ أي أنها تمثل شكلا عرفيا يحتاجه البناء التصوري لكي يتم تشفيره في اللغة.

ولا بد من الإشارة إلى أن البنية الدلالية والبنية التصورية ليستا متطابقتيْن تمام المطابقة، إذ يزعم بعض علماء الدلالة المعرفية أن المعاني المرتبطة بالكلمات مثلا، تشكل مجموعة فرعية من التصورات الممكنة ليس إلّا. وتبقى أفكار وتصورات ومشاعر أخرى في حاجة إلى تشفيرها في اللغة. أي أن جملة التصورات المعجمية ما هي إلا مجموعة فرعية من المجموعة الكلية للتصورات الموجودة في ذهن المتكلم؛ أي «أنّ البنية التصورية تنتمي إلى مستعمِل اللغة الفرد، وأن التصورات التي تحيل إليها الكلمات توجد في رؤوس الأفراد».

ولكن اللغة –في المتعارف عليه- هي تعبير المتكلم عن مقصوده في الواقع الاجتماعي، أي أنها ظاهرة اجتماعية.

والسؤال الذي يطرحه محمد غاليم هو: كيف تصبح البنيات التصورية الفردية اجتماعية؟ وكيف يمكن أن نتحدث عن وجود معنى أو إحالة متفق عليها لعبارة معينة؟ وبصيغة أخرى شاملة للتساؤل: كيف نتواصل إذا كان بناء التصورات فرديا في جوهره.

ترتبط الإجابة بالمتكلم كيف يستعمل اللغة، وبتصوراته عن معاني الأشياء في العالم الخارجي، فما دام يتحدث عنها باللغة نفسها التي يستعملها، ويستطيع الإحالة إلى ما يتصوره في العالم الخارجي سيحصل التواصل.

ولا بد أن ينفتح التركيب والدلالة على ما هو تداولي؛ إذ لا يكفيان وحدهما في تحديد المعنى وتفسيره، لأن المعنى وقضاياه المختلفة تتحكم فيه عوامل غير لغوية أهمها المقام. فكل تركيب لغوي إنما اقتضاه مقام محدد. وهذا ما رأيناه عند العلماء العرب القدامى في مقولتهم المشهورة: "لكل مقام مقال". فهي ليست مقولة جاءت هكذا عفو الخاطر وإنما جاءت عن خبرة وتجربة بالممارسة اللغوية واستعمالاتها المتنوعة حسب مقاماتها اللازمة. وناتجة أيضا عن تصوراتهم للأشياء ونظرتهم للعالم.

إنّ تحديد معاني الجمل والتراكيب اللغوية يقتضي استحضار المقام الذي قيلت فيه، كما يقتضي استحضار وضعية المتكلم، ووضعية السامع، ويعزز تفاعل هاتين الوضعيتيْن ظروفا خطابية تسمى مقتضيات الحال، وهذه القضايا هي التي شكلت ميدانا ثريا للتداولية.

وهكذا فإن فهم المعنى يقتضي تضافر كل المستويات اللسانية.

لهذا كله فإن البحث عن المعنى كامن في الكفاءات أو العمليات الذهنية المعرفية التي يقوم بها المتكلم وهو يُحدِث خطابه ويصوغه الصياغة المناسبة، وكذلك العمليات التي يقوم بها السامع لفهم ذلك الخطاب وفهم معناه، فكل من المتكلم والسامع لهما من الإمكانات الذهنية المعرفية ما يجعلهما ينزّلان الخطاب ويصوغانه صياغات مختلفة.

ولهذا أكّد "لانقاكر" على الأهمية الخاصة التي تكتسيها طريقة التصور والتشكيل التي وضع لها مصطلح imagerie، ويعني أن المتكلم له القدرة على أن يتصور المضمون نفسه بكيفيات مختلفة، وما يميز هذ القدرة يكمن في تمييز المتكلم بين الوجه le profil ou la figure والقاعدة أو الخلفية la base ou le fond، فقاعدة المعنى هي مجموعة الأبنية والمجالات المعرفية التي تخصصه، أما الجانب الذي يجب إبرازه فهو بنية صغيرة من أبنية القاعدة أو الخلفية التي تحيل عليها وتشير إليها، وعلى هذه المضامين والمعارف مع العمليات الذهنية ينبني محتوى التأويل.

ويمثل مفهوما بؤرة في تشكيل المعرفة، فأن تؤول يعني أن تدرك وتفهم وتصف وتصنّف وتحلّل، وكلها مفاهيم تنتمي إلى منظومة التفكير المفهومي الذي تقتضيه العلوم المعرفية.

5-التداولية المعرفية (نظرية المناسبة):

ازداد الوعي بالبعد الاجتماعي للغة منذ عقود، واتجه نحو التوجه الاستعمالي للغة، ويعد هذا مطلبا تداوليا مُهمًّا، فلا يمكن الاستغناء في تحليل اللغة وفهم معانيها عن البعد الاجتماعي؛ فهو الذي يظهرها نشاطا حيا يمارسه المتكلمون في أنشطة حياتهم المختلفة، وفي التعبير عنها باستعمال اللغة المناسبة في المقام المناسب.

سنتحدث في هذا الشأن عن نظرية المناسبة / الملاءمة / الصلة relevance/pertinence. يُعِدّ جاك موشلار J. Moeschler هذه النظرية نسخة أكثر اكتمالا للتداولية بعد الإرث الذي تركه غرايس، ويعدها نظرية معرفية ونظرية مقامية، جعلت التداولية تشكل موضوعها الخاص، وتتميز عن اللسانيات.

وترجع هذه النظرية في تأسيسها إلى التعاون المثمر بين الباحثيْن:

"دان سبربر" (1942) Dan Sperber، و"ديدر ويلسون" (1941) Deider Wilson.

وقد اختلفت آراء الدارسين للغة: فمنهم من ذهب إلى أنه يمكن تفسير الجمل والأقوال والملفوظات ومعرفة مقاصد المتكلم من خطابه دون النظر إلى ما يتعلق بالمقام، أو السياق الاجتماعي المحيط بإحداث الخطابات وإنتاج النصوص. ومنهم من يذهب إلى أنّ ذلك لا يمكن إلا بالرجوع إلى معطيات المقام.

ولكن وبتأثير من الدور الاستعمالي للغة الذي ظهر منذ الستينات، تمثل نظريات مثل نظرية الفضاء الذهني، ونظرية الدمج المفهومي، انتقالا مفهوميا في مواجهة الفكرة المؤسسة على أن الجمل حوامل للمعنى بمعزل عن وظيفتها في المعرفة الإنسانية.

وهنا نشير إلى "جيل فوكونيه" صاحب نظرية الفضاءات الذهنية، ونظرية الدمج أو المزج المفهومي، وهي من النظريات أو النماذج التي تعنى بدراسة العلاقة بين الأبنية اللغوية التي تم إنتاجها، والآليات الذهنية التي تساعد على إنتاج الدلالات وتقوم بتأويلها في مقام التخاطب، وبناء عليه، فإن المعنى يصدر عندما يتم أداء تلك العمليات، ولس كامنا في حد ذاته في الجمل معزولة عن مقامها.

لأن النشاط اللغوي هو في الحقيقة عمل ذهني مرتبط بمقامه. «ويترتب على هذا التفسير اعتبار فهم البنية اللغوية، سواء كانت جملة أو نصا، عملية ذهنية تفاعلية مفتوحة تتحقق بمسار تأويلي يجري في فضاءات ذهنية منطلقها المتكلم ومنتهاها المخاطَب في مقام ما».

إنّ بناء المعنى يركّز على الذات الإنسانية ويعدها عنصرا لا يمكن الاستغناء عنه في تشكيل اللغة والفكر؛ فاللغة وسيلة مفهومية ولا تتجلى رمزيا بمعزل عن الأحوال المستقلة للذهن.

يرى جيل فوكونييه أن أحد أوجه الخلل في اللسانيات والفلسفة هو: الإصرار على فصل المكوّنات التركيبية والدلالية والتداولية، بعضها عن بعض، ومحاولة فهم البنية النحوية أو بنية العبارات ومعانيها بعيدا عن استعمالها في الاستدلال المنطقي والتواصل.

ولجبر ذلك الخلل لا بد من المزج التصوري أو المفهومي، فالجمل تحتاج إلى السياق التداولي الذي يجعلها مناسبة وواضحة.

يميز "سبربر وولسون" بين المعنى اللساني وبين قصد المتكلم من حيث تشفير المعنى المراد قوله؛ فالدلالة اللسانية لا تشفر المعنى بشكل تام.

فقصد المتكلم أكثر غنى وأكثر تعقيدا من المعنى المشفر لسانيا. إن التشفير اللساني محدود، بينما قصد المتكلم ثري وخصب ومعقد، ويؤدي وظيفة أساسية في بناء التواصل من حيث استراتيجياته وإنجاحه، وجعله مناسبا من حيث ملفوظاته لمقام التخاطب، وعليه يكون الكلام مناسبا للمقام والعكس.

يتأسس مفهوم المناسبة/الصلة على شرطيْن أساسيين هما: الآثار السياقية والجهد المعرفي، ويقصد الباحثان بهذيْن الشرطيْن تفاعل المعلومات القديمة بأخرى جديدة مما ينتج عنه مجموعة من الحسابات الذهنية تعدل أو تحسن افتراضات توجد في الذاكرة التصورية أو تثبتها أو تقصيها. وبحسب درجة تأثير الآثار السياقية في معالجة ملفوظ تتحدد مناسبته بالنسبة للشخص المعالج، وكلما كان الجهد المبذول قليلا ازدادت درجة مناسبته.

إن ما يزيد في تقوية المقام ويرفع من منسوب تأثيراته هو النتيجة الحاصلة من التفاعل بين المعلومات القديمة والجديدة. فالمعلومات القديمة إذا كانت مكررة لا قيمة لها، والمعلومات الجديدة إذا لم تكن لها صلة بالمعلومات القديمة هي أيضا لا قيمة لها، وهذا يعني أن المقام يكون مؤثرا إذا أضاف معلومات جديدة لدى المخاطَب.

6-نظرية المناسبة والمقام:

تنظر نظرية المناسبة إلى التداولية على أنها نظرية حقيقية للمقام. فقد جاءت لتضيف إلى النظريات التي سبقتها وبخاصة البنوية كل العناصر المتعلقة بالمقام، حتى إنها صارت توصف بالمقامية كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

يسعى المخاطَب باستمرار إلى إعادة بناء مقصود المتكلم فيقوم بعمليات استدلالية بناء على عنصريْن هما:

العنصر الأول هو المعنى اللساني والعنصر الثاني هو المقام (السياق).

والعنصر المتحكم فيهما هو المناسبة.

عرّف دان سبربر "المقام" بأنه: «مجموع المقدمات المستعملة في تأويل ملفوظ ما». وقد وسّع من مجاله ليتجاوز المعلومات التي لها علاقة بالمحيط الخارجي المباشر، والمعلومات المستفادة من الملفوظات السابقة، ويشمل «التوقعات والفرضيات العلمية والمعتقدات الدينية، والذكريات، والأحكام الثقافية المسبقة، والافتراضات حول الحالة الذهنية للمتكلم، كل هذه المكوِّنات يمكن أن يتضمنها السياق ما دامت قابلة لأنْ تؤدي دورًا في التأويل».

نفهم من هذا التعريف أن المقام نسق حركي دينامي مولّد للنشاط التأويلي، يستحضر فيه المؤول معرفته السابقة وذكرياته ومعتقداته وثقافته، وكل المكونات القابلة لأن تؤدي دورها في التأويل، وإمكاناته المعرفية واللغوية على المستوى التعبيري المتعلق بالمتكلم ووظيفته في بناء الخطاب، وشحنِه بما يناسبه من المحتويات المعرفية، وعلى المستوى التأثيري المتعلق بالمخاطَب ووظيفته في فهم الخطاب وتحليله واستحضار كل الإمكانات الذهنية والمعرفية واللغوية في ذلك، وعلى المستوى المتعلق بالخطاب وما يحتاجه من نظم مناسب، وكل هذه المستويات متفاعل بعضها ببعض تعطينا النتيجة الحاصلة من العملية التأويلية، المبنية أساسا على مجموعة من الافتراضات التي يملكها المستمع حول العالم. ويستمدها من تأويل الأقوال السابقة من أجل بناء افتراض جديد، ومن المحيط الفيزيائي أو مقام التخاطب، ومن النظام المركزي للذاكرة، وبتفاعل المعلومات اللسانية وغير اللسانية يصير اللساني معطى مقاميا، ثم تتحول كل العناصر إلى مقدمات خادمة للعملية الاستدلالية من أجل الوصول إلى نتائج. وتصير هذه النتائج في حد ذاتها مقدمات لفهم الملفوظات اللاحقة. مثلا: ما يحدث في قراءة الجملة الأولى في رواية، إذ المقصد التواصلي للخطاب يبنى على المقاصد الإخبارية الموضعية.

يمكن أن نقدم المثال الآتي من قصة القاصة الفلسطينية "سميرة عزام" عنوانها: "دموع للبيع" من مجموعتها القصصية: "الظل الكبير".

عندما نقرأ الجملة الأولى من القصة وهي:

«لا أعرف كيف تهيّأ لخزنة أن تكون نادبة موتى وماشطة عرائس في آن واحد»

فإننا نجدها جاءت بعد العنوان مباشرة، وهي تمثل حيرة الساردة واستغرابها وتعجُّبها من "خزنة" التي تقوم بدورين أو وظيفتيْن متناقضتيْن في آن واحد.

نادبة موتى وماشطة عرائس.

تمثل هذه الجملة مفتاح النص، فمنها بدأت زراعة النص، ومنها بدأ تأثيث مقامه العام.

انبنى على هذه الجملة الفاتحة المفتاح النّصُ القصصي بكامله، فالجزء الأول منها وهو: أن تكون خزنة نادبة موتى انبنى عليها مقام حزن متعلق بمأتم ذهبت إليه خزنة الشخصية الأساسية في القصة، وقامت بما اقتضاه المقام. والجزء الثاني: ماشطة عرائس انبنى عليه مقام فرح حيث خزنة في العرس، وقامت بما قتضاه مقام العرس.

فالقارئ للقصة يجد نفسه أمام مقاميْن اثنيْن متناقضيْن، ويجد نفسه أمام شخصية خزنة، وقد سلطت عليها القاصة كثيرا من الأوصاف، بدءا باسمها خزنة؛ فهي تخزن كل شيء؛ الأكل والدراهم والهموم وأسرار الموتى وأسرار العرائس والدموع.

ثم بجسدها؛ فهي طويلة عريضة إذا دخلت الباب سدته، لها فم كبير، وقبضة يد قوية.

ثم بأوصافها وهي في المأتم تبكي على رأس الميت، وهي منفوشة الشعر، معصبة رأسها بعصابة سوداء، وقد صبغت وجهها بالنيل فصار كوجوه المساخر التي يعلقها الباعة في الأكشاك. وكيفية بكائها وصرخاتها المؤثرة في النسوة، فإذا بكت بكيْن وإذا ازدادت بكاء ازددن معها، وإذا توقفت توقفن... وهي تقوم بذلك إلى أن يأخذ الناس الميت إلى المسجد فالجبانة.

والأمر نفسه يتكرر في مقام العرس مع العروس، فتصبح خزنة في مقامٍ مغاير يحتاج إلى أوصافٍ مغايرة. فالبكاء الذي كان صار زغاريد ورقصات وغناء، والوجه صار مزينا بالمساحيق والشعر مسرحا مزيَّنا بالمنثور. وعيناها صارتا أكثر اتساعا بالكحل الذي حوطتهما به، ويداها صارتا مُثقلتيْن بالأساور (من قال أن تجارة الموتى غير رابحة)، وفمها ينفتح على قهقهات لا ينطبق إلا نصف انطباقة، وهي تدير قطعة لبان بين أسنانها الصفراء.

والمهم أنها تُعِد العروس إلى أن يأخذها عريسها، وتبقى إلى الصباح حتى تخرج راضية العين والنفس والجيب والفم يلاحقها دعاء النسوة أن تفرح بابنتها مسعودة.

يمكن أن نرسم هذيْن المقاميْن كما يلي:

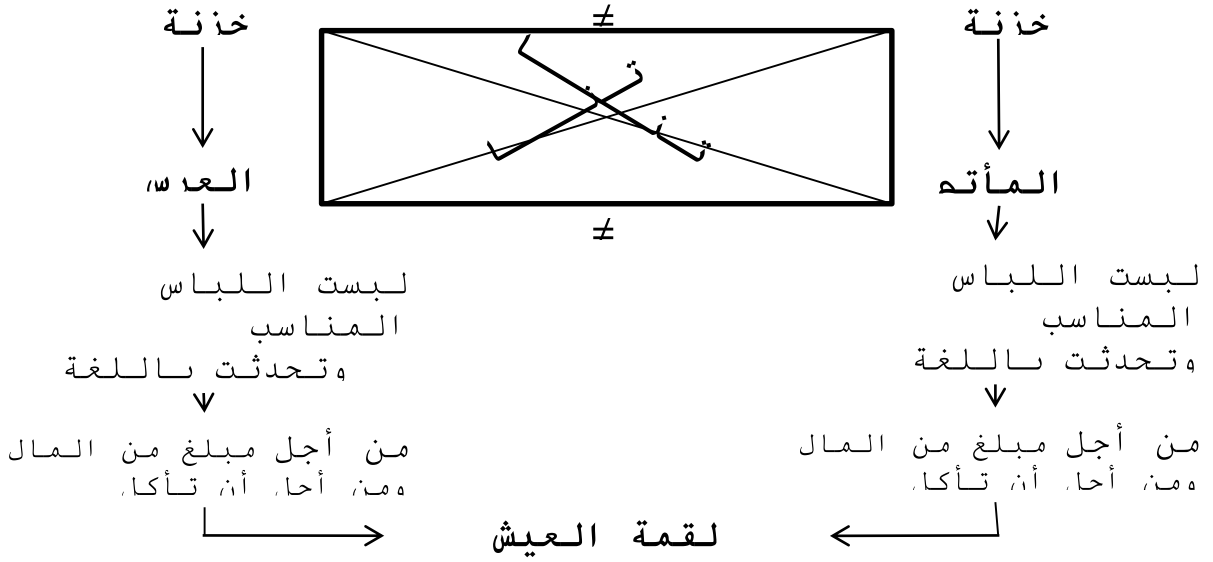

وأما الجزء الثالث من النص فقد انبنى على الجزئين السابقيْن بما يحملان من معلومات خاصة بالمأتم والعرس وأحوال خزنة فيهما وأفعالها.

يبدأ بهذه الجملة التي تتسيّد الفقرة، وكأنها عنوان ونصها:

«ولم تشأ السماء أن تفرح خزنة».

فقد توفيت ابنتها الوحيدة، فأخذ الناس الفضول كيف ستبكي ابنتها الوحيدة وهي البكّاية؟! فهرعت إليها النسوة ليريْن ذلك. ولكن المفاجأة. لم يجدنها تبكي بل استنكرت عليهن البكاء.

وهنا يأتي مقام آخر مخالف للمقاميْن السابقيْن يمكن أن نسميه مقام الحقيقة.

ونشير هنا إلى أن خزنة وهي في المأتم وهي في العرس؛ إنما كانت مُقَنّعة. فربما تكون فرحة مستبشرة ويأتيها مأتم تبكي صاحبه، وربما تكون محزونة ويأتيها عرس تمشط عروسه، أي أنّ المقاميْن هما في الحقيقة مقام واحد.

لقد كانت تلزم نفسها بمسايرة أو ملاءمة المقام، لقد كانت تَتَمَقْيَمُ إن جاز التعبير.

ويمكن أن نرسم ذلك كما يلي:

الأسس المعنى في التصور المعرفي

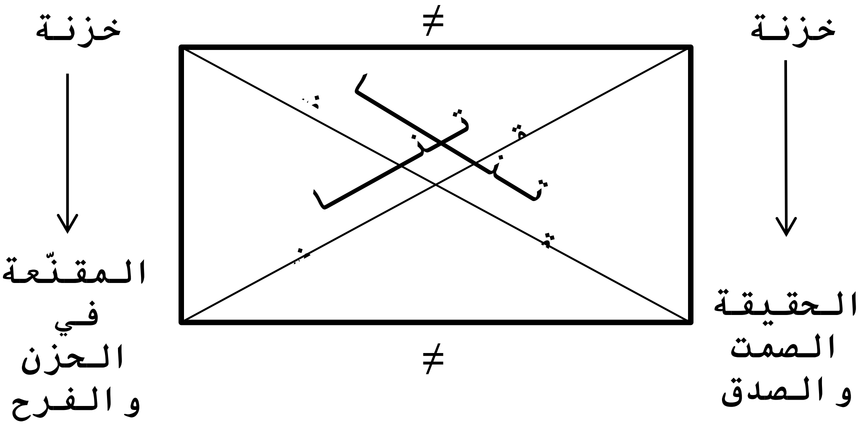

إنّ الذي حصل هو إزاحة مقام الحقيقة للمقاميْن السابقيْن نتيجة ما احتواه من معلومات جديدة، ثم ضمّها إلى المعلومات السابقة في النص القصصي.

«وقد تناول سبربر وويلسون التشكيل الإزاحي للمقام في خضم مناقشتهما لمفهوم التأثيرات المقامية... بموجب تسييق الكلام من لدن المخاطَب، بصورة تفضي إلى تعديل في المقام التواصلي مما يترتب على ذلك تعديل العالم أو تصوُّره من لدن الإنسان».

ويظل القصد الذي تريد القاصة تبليغه وتبصير القارئ به، مخبوءا في العنوان "دموع للبيع"، وما يحمله العنوان من دلالة، وكذلك إظهار خزنة بصفاتها وأحوالها وردود أفعالها في المأتم والعرس؛ من ذلك هذه الجملة. «من قال أن تجارة الموتى غير رابحة». ثم عندما تضع خزنة في مواجهة الحقيقة وهي موت ابنتها وهو مقام لا يُحسَد عليه أحد.

إنّ القاصة تريد إدانة ظاهرة استئجار الندابات في المآتم وهذا هو قصدها النهائي.

والملاحظ أيضا أنّ المقام هنا لم يكن دفعة واحدةً؛ وإنما كان شيئا فشيئا على التدريج. من المقام الأول إلى الثاني وتكاملهما، ثم إلى الثالث يتم بناؤُه بالنظر إلى مسار السرد القصصي.

وما نستخلصه من كل ما سبق أنّ نظرية المناسبة هي في الحقيقة نظرية مقامية بكل ما تحمله الكلمة من تلوُّن وتنوُّع وتعدُّد وتجدُّد، ومن معرفة خلفية مؤطرة لطرفي التواصل.

7- خلاصة :

وهكذا صار المعنى والمقام في التصورات المعرفية وحدةً أساسيةً في دراسة اللغة و بناء التصورات الذهنية وانفتاحها على مقتضيات التواصل في الحياة الاجتماعية وهذا يبين أنّهما يشكلان نسقاً معرفياً تواصلياً جامعاً ،تتلاقى فيه مفاهيم عديدة وتخصصات ومعارف متنوعة .

8- المراجع :

ينظر: كاترين فوكس: هل توجد لسانيات إدراكية، ترجمة: مصطفى السيد منصور، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد (4/25)، العدد100، صيف 2017، ص 64 وما بعدها.

(2) ينظر: حسان بوكيلي: المعجم الذهني: بحث في آليات النفاذ النفسية والمعرفية، سلا، المغرب، 2015، ص 14. وينظر: عبد الجبار بن غربية: مدخل إلى النحو العرفاني، مسكلياني للنشر، ط1، 2010، ص 14. وينظر: بشير إبرير: اللسانيات والأدب ودراسات أخرى، عالم الكتب الحديث، 2020، ص 18-19.

(3) ينظر: عبد الجبار بن غربية: مدخل إلى النحو العرفاني، ص 45-46.

قصيدة: "الاندلاع من جديد" للشاعر التونسي الحبيب الهمامي.

عبد الجبار بن غربية: مدخل إلى النحو العرفاني، ص 46.

محمد غاليم: المعرفة النواة دليلا على استقلال الدلالة وبنيتها، ضمن "قضايا المعنى في التفكير اللساني والفلسفي"، إشراف: عبد السلام عيساوي، جامعة منوبة، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، تونس، 2015، ص 17.

المرجع نفسه، ص 17.

ينظر: فيفيان إيفانز وميلاني جرين: ما هو علم الدلالة الإدراكي، ترجمة: أحمد الشيمي، مجلة فصول، عدد100، ص 85.

صابر الحباشة: لسانيات الخطاب: الأسلوبية والتلفظ والتداولية، دار الحوار، ص 68.

ينظر: فيفيان إيفانز وميلاني جرين: ما هو علم الدلالة الإدراكي، ص 80.

قدم لايكوف وجونسون أمثلة أخرى بنينا على غرارها الأمثلة الموجودة أعلاه.

ينظر: فيفيان إيفانز وميلاني جرين: ما هو علم الدلالة الإدراكي، ص 80-81.

ينظر: المرجع نفسه، ص 81.

محمد غاليم: بعض مقتضيات الكفاية المعرفية في لسانيات الخطاب، ص 64.

ينظر: المرجع نفسه ،ص64.

ينظر: تكامل المستويات اللسانية في تفسير المعنى "المعنى المضمر أنموذجا"، محمد لغريسي، ضمن "قضايا المعنى في التفكير اللساني والفلسفي"، منوبة، تونس، ص 731.

ينظر: عبد الجبار بن غربية: مدخل إلى النحو العرفاني، ص 47.

ينظر: بشير إبرير: اللسانيات والأدب ودراسات أخرى، ص 54-55.

ينظر: لاين برانت: الاستعارة والعقل التواصلي، ترجمة: السيد إمام، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد (1/26)، العدد101، خاص بالبلاغة الجديدة، 2017، ص 149.

لطفي الذويبي: قدرة نظرية الفضاءات الذهنية على تأويل الأبنية اللغوية، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، العدد3، 2016، ص 1.

ينظر: لاين برانت: الاستعارة والعقل التواصلي، ص 150.

ينظر: المرجع نفسه، ص 105-106.

ينظر: عبد الله الكدّالي: المقام والتواصل، ص 294-295.

نجوى جيلوت: مفاهيم أساسية في تحليل الخطاب: الاتساق والانسجام والمناسبة، ص 107. وقد أحالت إلى سبربر وولسون في كتابهما:

La pertinence, communication et cognition, Les éditions de Minuit, 1989, p 31.

ينظر: نجوى جيلوت: مفاهيم أساسية في تحليل الخطاب: الاتساق والانسجام والمناسبة، ضمن كتاب "قضايا الخطاب في الفكر اللساني والسيميائي"، ص 104-105.

المرجع نفسه، ص 107 و ص 31.

استعملت المستوى التعبيري للمقام والمستوى التأثيري للمقام والمستوى النظمي للمقام، استعارةً من عبد الله الكدّالي في كتابه المهم: "المقام والتواصل".

ينظر: نجوى حيلوت: مفاهيم أساسية في تحليل الخطاب: الاتساق والانسجام والمناسبة، ص 107-108.

توفيت سنة 1967.

دار العودة، بيروت، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، 1982.

جاء في القصة أنها كانت أرملة تعيل ابنتها الوحيدة مسعودة في بيئة قروية صعبة في التضاريس وفي التفكير.

عبد الله الكدالي ،المقام و التواصل ،ص294.

لا يمثل هذا تحليلاً متكاملاً لهذه القصة بقدر ما يمثل مثالاً توضيحياً .

الأسس المعنى في التصور المعرفي